رغم كلِّ ما تقدّم، فإني أعتقد أنّ هذا الانتحال أو الغزو ـ في حدّ ذاته ـ لا يؤثّر في ثقافتنا وتراثنا الموسيقيّيْن، لا من قريبٍ ولا من بعيد. وهذا لا يعني أنّ ثقافتنا وتراثنا بخير، بل العكس. ولكنْ، في هذه النقطة بالذات، لا يُمْكننا أن نتّهمَ الغزوَ الإسرائيليّ بذلك، بل أنفسنا. أعْلمُ أنّ هذا الكلام قد يثير استهجانَ بعض القرّاء، ولكنْ يجب أن أوضحَ هنا أنّ الغزوَ الإسرائيليّ غيرُ مسؤول عن الهبوط الثقافيّ والموسيقيّ بالتحديد، المتفشّي كالسرطان في أنحاء دول الشرق والعالم الثالث عمومًا، إلا إذا أثبتَ لي أحدٌ اليومَ أنّ الغزوَ الإسرائيليّ مسؤولٌ أيضًا عن تدهور الإبداع الموسيقيّ في سوريا أو مصر أو تركيا، أو أنّ الإسرائيليين مسؤولون عن ترويج الـ «سياسة الثقافيّة الأمريكيّة» التي تهدف إلى تسطيح وتضحيلِ ما أمكن في أنحاء المعمورة عمومًا، وفي الدول الشرقيّة والإسلاميّة خصوصًا، سواء عن طريق الفضائيّات، أو عن طريق إملاء سياساتٍ ثقافيّةٍ بعينها من قِبل أمريكا ودول أوروبا على العالم الثالث، والعربيّ ضمنًه؛ وإلاّ إذا أثبتَ أحدٌ لي أنّ القائمين على هذه الفضائيّات وعلى تنفيذ السياسات الأمريكيّة ـ من أبناء منطقتنا وأبناءِ جلدتنا ـ هم أداةٌ بريئةٌ في براثن الحركة الصهيونيّة أو الـ سي. آي. ايه. أو البيت الأبيض؛ أو أثبتَ غير ذلك من النظريّات التي أعترفُ بأنني لا أملكُ عليها برهانًا ولكنني أشعرُ بها بقوّةٍ وأراها بأمّ العين يوميّاً.

بكلماتٍ أخرى، أنا لا أخشى الغزوَ الموسيقيَّ الأجنبيَّ لثقافتنا، بقدْرِ ما أخشى انتحارَنا الثقافيّ. ونحن سائرون على طريق هذا الانتحار، بخطواتٍ حثيثةٍ، منذ نكسة ٦٧، إنْ لم يكن قبلَ ذلك. إنّ عدمَ معرفتنا، ومن ثم عدمَ إيماننا وثقتنا بموروثنا الثقافيّ، يؤدّيان بنا، كدولٍ وشعوبٍ نامية، إلى البحث عن حلولٍ سهلةٍ وسريعةٍ لشتّى مناحي الفكر والحياة، فيَسْهل علينا الانجذابُ إلى الساكسوفون والجيتار، وإلى رائحة أمريكا والدولار والنجاح الماديّ والإعلاميّ أكثرَ من إعمال العقل والاجتهاد والبحث في لغتنا الأصليّة وإمكانيّاتِ إنعاشها وتطويرها. هكذا نجري بسهولةٍ، كالقطعان، خلف كلِّ ما هو «كُولْ» وكلِّ ما يلْمع من على شاشات التلفزيون الأمريكيّ، فيَسْهل علينا استبدالُ ثقافتنا وموروثنا الحضاريّ ـ الذي لا أُنكر أنه يعاني ذكرياتِ هزائمَ وربما بعضَ رائحةِ «نكساتٍ» نشعر برغبةٍ في نسيانها ـ لاعتقادنا الخاطئ أنّ هذا التغييرَ هو الحلُّ السحريّ. بالنتيجة، نحن نبيع موروثنا، بمرجعيّاته وأنواعه، إلى الآخرين، وبأبخس الأسعار. وأخشى أن يأتي يومٌ نستفيقُ فيه من هذا السبات لنصرخَ ونتباكى على «أسْرَلَةِ» العود وتهويدِ المقام الشرقيّ، أسوةً بما يحْدث للحمّص والتبّولة. في ذلك اليوم يجب ألاّ نلومَ إلاّ أنفسَنا، لأنّ إسرائيلَ لم تغزُ ثقافتَنا تمامًا، بل نحن الذين بعناها ذليلةً في سوق العبيد ونحن نيام.

ولختام موقفي من الغزو الإسرائيليّ لثقافتنا، أوردُ هنا هذه الفقرة من رواية **المتشائل** للأديب الكبير إميل حبيبي، وهو بدوره ينقلها عن الجاحظ: «سمعتُ في بلاد فارس حكايةً عن فأسٍ ليس فيها عودٌ، أُلقيتْ بين الشجر. فقال الشجرُ لبعضٍ: ما أُلقِيَتْ هذه هاهنا لخيْرٍ. فقالت شجرةٌ حكيمة: إنْ لم يدخلْ في اسْتِ هذهِ عودٌ مِنكُنّ، فلا تَخَفْنَها.»

فلسطين

ملفّات الأعداد القادمة من الآداب:

- **هويّة اليسار العربي اليوم (ملفّان، آذار ـ نيسان وأيّار ـ حزيران ٢٠١٠).**
- **في مفهوم «الخيانة الوطنيّة»: أنا أوّلاً؟.**
- **أدب الأطفال والناشئة في الوطن العربيّ.**